

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

د. الدكتورة راجية بن علي¹

¹ قسم علم النفس وعلوم التربية- جامعة باتنة- الجزائر

تاريخ الاستلام: 2013/11/10 تاريخ القبول: 2013/11/26 تاريخ النشر: 2013/12/01

ملخص

إن الوقوف على مفهوم الطفل أو بشكل أوضح على مفهوم تواجد الطفل في الأسرة الجزائرية يسمح لنا بفهم علي وملم لطبيعة العلاقات الأسرية، للاتجاهات وأساليب المعاملة الوالدية بصفة عامة، وللتربية القائمة في الأسرة الجزائرية. من خلال هذا العرض نحاول تحديد مجموع المحددات التي ترسم مفهوم الطفل في الأسرة الجزائرية، والتي ربطناها بثلاث محددات : دينية، اجتماعية وأسرية. تحليل هذه المحددات وفهمها يساعدنا على إعطاء معنى لكثير من السلوكات والتطبيقات التربوية الوالدية في الأسرة الجزائرية.

Résumé

La manière de percevoir et de penser l'enfant influe sur ses conditions de vie, sur son statut et sur les comportements des adultes à son égard. Dans une société donnée, les idées et les images relatives à l'enfant, si variées soient-elles, s'organisent en représentations collectives, qui forment un système à niveaux multiples. Ce système vise en premier lieu la socialisation de l'enfant et son intégration selon la culture à laquelle il appartient. Les comportements familiaux ne prennent leur sens que si l'on s'interroge sur le but, avoué ou non avoué, de la culture, sur les valeurs, les mœurs, la conception de la vie et les caractéristiques structurelles du groupe familial qui entourent l'enfant et agissent sur la perception qu'on a de lui. S'arrêter sur les représentations qui entourent la présence de l'enfant dans la société algérienne permet une meilleure compréhension des attitudes et des pratiques éducatives familiales.

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

مقدمة

منذ الأزل والكبار يعلمون أطفالهم كيف يعيشون، كيف يلبون حاجاتهم البيولوجية، يدافعون عن أنفسهم، يتعاملون مع أقرانهم، يمجدون ويعبدون آلهاتهم الخ. هذه السلوكات البسيطة والأساسية لحياة الجماعات الإنسانية نجدها في كل الثقافات، بل حتى خارج الجنس البشري. لكن من ثقافة لأخرى هذه الممارسات التي قد تبدو نفسها في الظاهر لا تنتقل بنفس الخطوات ولا تتبع في اكتسابها نفس الطريقة. هذا لأن تفاعل الكبار وتعاملهم مع الأطفال، والمحددات التي توجه تصوراتهم وسلوكاتهم الحقيقية كثيرا ما تخضع لقانون المتغيرات الثقافية (F. Heritier, 1992 M. Segalen 1996).

الطريقة التي نرى الطفل من خلالها، أو نتصوره بها في أي ثقافة كانت لها تأثيرها الكبير على مسار حياته، على إدراك الكبار وفهمهم له، على سلوكياتهم اتجاهه وكذا على مكانته في الأسرة والمجتمع. فالأفكار المتعلقة بالطفل -على تنوعها- تنتظم في شكل تصورات جماعية تكون نسقا بمستويات متعددة. هذا النسق يسعى أساسا لتنشئة الطفل اجتماعيا ولإدماجه وتكييفه مع الثقافة التي ينتمي إليها. ومنه فالسلوكات المتبعة في الأسرة لا تأخذ معناها الحقيقي إلا إذا تساءلنا عن غاياتها الثقافية المعلنة أو غير المعلنة، عن مجموع القيم والأعراف في المجتمع وعن المميزات البنائية للأسرة في حد ذاتها كتنظيمها، هدف التربية فيها وطرقها، مفهوم الأبوة والأمومة وكذا التصور الذي يلقاه مفهوم الطفل.

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

نظام المعتقدات الذي يؤثر تصور المجتمع الجزائري للطفل مبني على مجموعة من المحددات أهمها القيم الدينية والحاجات الاجتماعية والأسرية والفردية. ك. كميلري Camilleri.C يشرح أن الطفل في المجتمعات التقليدية (بما فيها المجتمع الجزائري في تصنيفه) هو "بالتقريب الشيء الوحيد المشترك، إذ نستطيع تقديمه على أنه يقع وسط بنية مرتبة يساهم فيها أساسا من خلال ضمان وتأمين التناسل la reproduction والمعايير، ويشكل متممة حلقات مشتركة المركز هي الأسرة، الجماعة، المجتمع والأمر الإلهي" بالتالي فالطريقة التي نرى ونعالج بها الأسئلة التي تطرح حول

كـ الدكتورة راحية بن علي

الطفل تحدد عموما بمحددات دينية، اجتماعية وأسرية. ونستطيع الكشف عن هذه المحددات من خلال مجموع القيم التي يتبناها الأفراد دون أن البحث عن المعنى الحقيقي لها، أو حتى عن مدى صحتها. إذ عادة ما يمارسونها ويكررونها لارتباطها بجماعتهم. وهي بهذا تعتمد بصورة كبيرة على الإحساس بالانتماء، الشيء الذي يجعل منها مسلمات ثابتة تقبل بلا اعتراض أو مناقشة. وسنحاول فيما يلي عرض هذه المحددات.

(أ) المحدد الديني

أول محدد نستهل به هو المحدد الديني. الوسط الثقافي الجزائري كان ولازال مطبوعا بالقيم وبالتقاليد الدينية. مكانة الإسلام وتأثيره على السلوكات والتصورات الاجتماعية للأفراد واقع يومي لا يمكن نفيه. فالدين عنصر ومرجع أساسي للشخصية الجزائرية. ورغم مختلف التعديلات التي استهدفت التشريع الجزائري ومختلف الحكومات التي تعاقبت حتى الأكثر علمانية منها – إذا استطعنا القول- لا يزال قانون الأسرة مبنيًا على الشريعة الإسلامية. وحتى إن ظل الجدل والنقاش قائما يبقى الإسلام بالنسبة للمشرع وللأفراد المرجعية الأساسية للسلوك والأفكار. لكن يجدر بنا أن نشير أيضا أنه بالنسبة لكثير من الجزائريين المعتقدات الدينية تتكون من مزيج من الدين، العرف، العادات المحلية، التقاليد والموروثات الثقافية، لدرجة أنه كثيرا ما نجد بعض المعتقدات والسلوكات التقليدية تنسب خطأ للإسلام. ويرجع هذا غالبا إلى عملية التفسير الشعبي البسيط للدين والذي يحدد بشكل كبير مفاهيم وتصورات الأفراد.

والمحدد الأول لمفهوم الطفل بالنسبة للجزائريين يأتي من المرجعية الدينية حيث يبرز كنعمة وعطية ثمينة من الله عز وجل. وقد قرنه القرآن الكريم في أكثر من آية بالثروات التي يمكن للإنسان أن يملكها في الحياة الدنيا، إذ جاء في محكم تنزيله : " *المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا* " ¹. و "وأمددناكم بأموال

¹. القرآن الكريم، الكهف 46.

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

وبنينا وجعلناكم أكثر نفيرا " ². هاتان الآيتان الكريمتان تصنفان الأطفال ضمن النعم التي يحبها الله عباده وتجعل منهم زينة الحياة الدنيا، وهما بهذا تبرزان القيمة التي يعطيها الإسلام للطفل، وتحثان على تواجده في حياة الفرد المسلم الذي لا يكتمل دينه إلا بالزواج والإنجاب.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد أعطى الإسلام للوالدين مكانة جد مميزة وأوصى بهما خيرا. ولعل البر بهما من أكثر الأعمال الدنيوية التي يؤجر عنها المسلم. ومنه أن يكون للمسلم أطفال عمل يرفع من شأنه ويعطيه العديد من الميزات والحقوق في الدنيا والآخرة. والآيات التي جاءت بهذا الصدد عديدة نذكر منها: "وقضى ربك ألا تعبد إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغان عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما (23) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا (24) " ³. هذه الآية وآيات أخرى كثيرة تتفق على إعطاء الوالدين مكانة خاصة وقيمة مميزة في الدارين. فكيف إذن للمسلم أن يحرم نفسه من أن يعيش الأبوة أو الأمومة ؟ حتى أن فكرة رفض الإنجاب كما يحدث عند بعض الأزواج في الغرب فكرة غير واردة بتاتا بالنسبة للمسلم، وقد وصل بعض العلماء حد تحريم استخدام موانع الحمل من قبيل أنه يحرم على المسلم رفض هبة أعزّه الله بها.

هذا من بعض ما جاء في القرآن الكريم، أما ما جاء في السنة الشريفة فإننا نذكر على سبيل المثال لا الحصر دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للإنجاب والتناسل من خلال قوله: "تزوجوا تناكحوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة " مما يجعل الزواج والتناسل واجبا دينيا يساهم من خلاله المسلم الحقيقي في زيادة الأمة الإسلامية. وبعبارة أخرى كيفية المساهمة في زيادة الأمة، فان لفكرة الزواج والإنجاب مكانتها الخاصة في الشريعة الإسلامية. فالزواج نصف الدين مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم " من تزوج فقد كمل نصف دينه فليتيق الله في النصف الآخر ". ولإكمال

². القرآن الكريم، الإسراء 6.

³. القرآن الكريم.

كلمة الدكتورة راحية بن علي

نصف الدين يشترط اختيار المرأة الولود، إذ جاء في قول رسول الله الكريم في حديث رواه أبو داود والنسائي والحاكم :

"تزوجوا الولود الودود فاني مكثربكم الأمم " وفي آخر " أحسن نسائكم الولود الودود ".

حتى بالنسبة للمرأة، لا توجد مكانة أو دور في الخطاب الديني أرفع وأسمى درجة من مكانة ودور الأم. إذ ورد في الحديث الشريف : " الجنة تحت أقدام الأمهات ". وفي حديث آخر رواه البخاري ومسلم : " قال رجل : من أحق الناس بصحبتى يا رسول الله ؟ قال أمك، قال ثم من ؟ قال أمك، قال ثم من ؟ قال أبوك ". هذان الحديثان يبرزان رفعة دور الأم من الناحية الدينية وقيمتها مقارنة بمختلف الأدوار التي يمكن للمرأة أن تقوم بها في حياتها، حتى أنه تساوى مع الجهاد. فالإنجاب هو جهاد النساء. ويقال أن النساء اللواتي يتوفين أثناء الحمل أو الوضع مثواه كمثوى الرجل الذي مات في الجهاد، أي الجنة. هذا التصور له بعده الخاص في القيم والعادات وحتى السلوكات الاجتماعية في الجزائر. يمينه فكار ⁴ قابلة جزائرية تشير في مقالها " الإنجاب أو جهاد النساء " المنشور سنة 1983 إلى هذه الروح القتالية من أجل الإسلام أثناء الإنجاب، وتشرح أن هذه الفكرة، أي فكرة الجهاد، تستخدم كدافع ومحفز قوي لتشجيع النساء أثناء عملية الولادة.

فضلا عن هذا فالروايات الدينية الشعبية تؤكد أن قبر المرأة الحامل مفتوح في الجنة من أول يوم تحمل فيه حتى اليوم الأربعين من بعد الولادة. ويقال أيضا أن دعواتها خاصة حين تكون على وشك الولادة من الدعوات المستجابة عند الله. هذا ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أنه من بين التصورات الدينية المتعارف عليها والمتداولة كثيرا في المجتمع الجزائري أن الطفل الذي يموت صغيرا يشفع لوالديه يوم القيامة. يسقيهما من ماء الجنة وينقص من ذنوبهما. وقد جاء في الحديث أنه إذا مات بن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث، كان منها ولد صالح يدعوله.

⁴. Fakkar . Y. 1983. Mettre au monde ou le djihad des femmes. in Femmes de méditerranée. Peuples méditerranés. N°22-23. p 282.

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

ومنه فالطفل من الجانب الديني لا يعتبر في أي حال من الأحوال خسارة لوالديه بل يأتي كذخر يفيد وينفع والديه في الدارين الأولى والآخرة. هذه الأمثلة وغيرها كثيرا ما تؤسس قناعات الأفراد اتجاه مفهوم الطفل وأهمية وجوده في الأسرة. وبهذا نستطيع القول أن البعد الديني يعد أحد الأبعاد الأساسية التي تحدد مفهوم الطفل في المجتمع. فالفرد الجزائري يعطي لكل ما يحيط بالطفل ويتواجده في الأسرة قيمة دينية من منطلق أنه هبة ونعمة من الله، يضمن تكاثر الأمة الإسلامية، يشفع لوالديه ويؤمن لهما مكانة وقيمة في الدارين الأولى والآخرة.

(ب) المحدد الاجتماعي

أما من الجانب الاجتماعي فالزواج في المجتمع الجزائري لا يكون كاملا إلا إذا كان خصبا. غياب هذه الميزة يجبر الزوجين على مواجهة ضغوطات كثيرة خاصة من محيطهما المباشر (أسرتيهما). هذه الضغوطات تزداد بطول فترة عدم الحمل، وقد تتعدى حتى حد الأسرة لتصبح من صلاحيات كل المحيطين بهما (العائلة الكبرى، الجيران، الأصدقاء، العمل ... الخ). وعادة ما يبقى الزوجان محط اهتمام هذا المحيط إلى حين حدوث الحمل. مما يدفعنا للقول أن الحمل (والذي يعني وجود الطفل) في الأسر الجزائرية ليس بالمسألة الشخصية التي تخص الزوجين فقط. العادات، التقاليد، القيم والخطاب الاجتماعي يجعل من تواجد الطفل في الأسرة مسألة اجتماعية تتجاوز الزوجين، وتعطيه بعدا مهما عادة ما يبدأ قبل الزواج ذاته. مريم درقيني⁵ تشرح هذا البعد بالقول: " أن الطفل مسجل في المشروع الضروري للوالدين. فهو موجود في تصورهما حتى قبل أن يحل في الأسرة، كل هذا (التفكير في الطفل) لا يبدأ بالزواج لكنه ينتهي به ". أي أن الهدف الأساسي من مشروع الزواج في المجتمع الجزائري هو الأطفال.

والخطاب العامي لا يخلو من الأدلة التي تشهد بهذا، فمن الشائع سماع الأم التي تريد تزويج ابنتها أو ابنتها تقول: "ياري يتزوج باش يجيب أولاد " أو " يخطف الأولاد " وغيرها من الجمل المتداولة، والتي توصلنا للقول بأنه لا يوجد في المجتمع الجزائري زواج

⁵ Derguini. M. 1996. Regards sur l'handicape dans la société algérienne. in Des sociétés des enfants. Paris. L'Harmattan. p 284.

كـه الدكتورة راحية بن علي

يبرمج من دون التفكير في الأطفال. فالرجل والمرأة لا يتزوجان لتكوين " زوج " " couple " بالمعنى أو المفهوم الغربي للكلمة، لكن ليشاركنا عن طريق الإنجاب في عمل اجتماعي قائم مسبقا هو : استمرارية ودوام الجماعة (بكل أبعادها).

من هنا، أن يبرز الزوجان بطفل يعتبر حدثا عائليا بغاية الأهمية إذ كثيرا ما يعيشه الزوجان كخلاص من الضغوطات النفسية والاجتماعية التي تحيط بهما. وتزداد أهمية هذا الحدث إذا كان المولود ذكرا لأنه يضمن تواتر الأسرة، يؤمن السلالة، يحمل لقب العائلة، يحفظ الميراث ويقوم برعاية والديه في الكبر. الشيء الذي يجعل منه مفخرة والديه أمام الكل.

في الواقع يعود أصل هذه الأهمية لطبيعة النظام البطريكي الأبوسي الذي يعتمد أساسا على إعادة إنتاج ونقل الموروث البيولوجي، المادي، الحضاري والرمزي. مما يجعل الطفل (أو الأطفال) عنصرا أساسيا في حياة الجماعة، خاصة إذا كان ذكرا. فالنظام يقوم على الرجال وعلى ما يسمحون به ويوفرونه من قوة عسكرية، سياسية واقتصادية. في ماض ليس بالبعيد كان عدد الأطفال (الذكور خاصة) مهما جدا في إثبات قوة ووحدة القبائل والأسر. هذا لأن القبائل الغنية بالرجال تكون لها هيبتها الخاصة وتعتلي المراكز القيادية في المناطق التي تتواجد بها. الذكور يتيحون فرصة الرخاء الاقتصادي من خلال قوة العمل التي يمثلونها، كما يعتبرون قوة عسكرية أثناء الصراعات (الأسرية أو القبلية) وقوة سياسية من خلال أصواتهم في المناسبات القبلية، القروية وحتى الوطنية (الشيء الذي لا تزال ملامحه مرسومة ليومنا هذا على الساحة السياسية الجزائرية). كما أن رؤوس القبائل، شرفاؤها ونبلاؤها هم عادة من الأسر الغنية بالرجال ألا يقال في أحد الأمثال الجزائرية : "بيت الرجال خير من بيت المال".

ومع أن النظام الأبوي التقليدي فقد كثيرا من خصائصه في عصر الأحادية (*l'individualisme*) والعولمة إلا أن فكرة قيام الأسرة على تواجد الأطفال، قبل كل شيء، لم تفقد أبدا من قيمتها. فهي لا تزال قائمة ليومنا هذا بشكل مميز ولنفس الأسباب تقريبا : الحفاظ على السلالة، على الاسم الأسري، على الميراث، إعالة الوالدين في الكبر وتوفير مدخل مالي إضافي قد يساعد في كثير من الأحيان على تسهيل

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

العيش. هذا فضلا عن المكانة التي يعطيها المجتمع للزوج والزوجة اللذين ساهما في استمرارية ودوام الجماعة مقارنة مع من لم يستطيعا الإنجاب، وهذا ما سنعرضه في العنصر التالي.

ج) المحدد الأسري

بمثل الامتيازات المذكورة سابقا والتي يضمها الطفل للوالدين سواء على المستوى الديني أو الاجتماعي، كيف لا تؤخذ بعين الاعتبار قدرة المرأة على الإنجاب ؟ وكيف لا تكون هذه القدرة في نظر الزوج، أسرته والمجتمع ككل ميزة هامة في الزوجة بل حتى أهم ميزة على الإطلاق ؟

إن الملاحظ للأدوار الاجتماعية في الأسر يدرك أن الدور الأساسي للزوجة في المجتمع الجزائري هو أولا وقبل كل شيء إنجاب الأطفال. فالمرأة الولود هي التي تؤدي وتتم العقد الذي من أجله طلبت للزواج : أي تملأ بيتها وتزيد من عدد أفراد أسرة زوجها وهذا لكل الأسباب السابقة الذكر. وبالمقابل تحصل هي على أعلى وأرفع مكانة يمكن أن تعتليها المرأة في المجتمعات الأبوسية خلال حياتها ككل (أن تكون أما). ولعل هذا ما يشرح لماذا يعتبر الزواج بالنسبة لكثير من النساء أو الفتيات مجرد مرحلة مؤقتة ينتظرن من خلالها مرحلة أخرى أكثر ثباتا واستقرارا : مرحلة الأمومة.

ولادة طفل بالنسبة للزوجة الجديدة يمثل منحى جد مهم في حياتها وحدث مصيري هذا لأنه يغلق الأبواب المفتوحة في وجه الطلاق، تعدد الزوجات أو العيش بلقب عاقر طول حياتها (مسكينة ما تولدش). حسين بن دحمان 1982 يقول في تحليله لمكانة المرأة في المجتمع المغربي أن " *الطفل في المجتمع المغربي يبقى جد منتظر ومرغوب فيه من طرف أمه، التي يمثل بالنسبة لها مكانة اجتماعية وندرجية*"⁶ إلى درجة أننا نستطيع أن نلاحظ أن هناك من النساء من تتحدثن عن يوم إنجاب طفلهن الأول كمحطة ذات أهمية أكثر من ليلة دخلتهن بكل ما تحمله هذه الأخيرة من ضغوطات ودلالات اجتماعية ورمزية.

⁶. Bendahman. H. 1982. Fonction paternelle au Maghreb et transplantation. Strasbourg I. Thèse en psychologie.

كهر الدكتورة راحية بن علي

الطفل يأتي ليرفع من مكانة المرأة وليعطيها الدور الأساسي الذي أراده لها المجتمع ورصدته لها الثقافة البطريركية : أي دور الأم، ومن جانب آخر ليسمح لها باكتساب سلطة لم يسمح لها أن تكتسبها طيلة حياتها من قبل كطفلة، فصبية في بيت والدها ثم كزوجة في بيت زوجها أو مع أسرته. هذه السلطة تكسبها يوم تثبت أنها قادرة على الإنجاب وتزداد بزيادة عدد أطفالها ومع كبرهم لتتجاوز أحيانا حتى سلطة الأب (Lacoste 1996) *Dujardin, C.* كما أنها تستطيع بالأطفال أن تضمن مكانتها في بيت زوجها وتصبح حياتها الزوجية أكثر ثباتا واستقرارا. لذا فانه من غير النادر أن نرى المرأة تتقبل كل ما يمكن أن تتعرض له من مشاكل، ضغوطات أو حتى إهانات من أسرة زوجها إلى أن يصبح لها أطفال، فبواسطتهم فقط تستطيع أن تبني حاجزا متينا ضد ما يهدد استقرارها في منزل الزوجية.

والحقيقة أن هذا الاستقرار مربوط بجنس وعدد أطفالها، فكلما زاد هذا الأخير زاد معه الاستقرار. مالك شبال يؤكد أن "قدر أو مصير المرأة العربية مرتبط ارتباطا وثيقا بما يعطيه رحمها"⁷. هذا الارتباط يتعلق بالعدد أكيد لكنه يتعلق أكثر بالجنس. فمن قدر أن يكون في نسلها ذكور يزيد استقرارها وتكون لها مرتبة أرفع وأسمى ممن لم يكن لها هذا. هنري جنوفوا Genevois. H يشرح أنه " كلما زاد عدد أولاد (ذكور) المرأة زاد استقرارها في منزلها، وهنا فقط تصبح سيدة المنزل "⁸. ولعل هذا ما يفسر لهفة النساء من أول سنة للزواج على إثبات أنهن قادرات على الإنجاب، وما يبرر أيضا الولادات المتكررة والمتقاربة (لإنجاب الذكر). إذ بهذا لا يجد الزوج ولا عائلته دافعا أو سببا مقنعا للبحث عن زوجة ثانية أو للطلاق، خاصة إذا علمنا مدى سلبية الصورة التي يمنحها المجتمع للمرأة المطلقة.

حتى وأن راودت الزوج فكرة الطلاق فانه عادة ما يتطلب في الأسر الجزائرية تدخل الجماعة (كبار العائلة وشرفائها) قبل اللجوء إلى المحاكم، وهنا كثيرا ما يكون عدد الأطفال سببا للعدول عنه حتى إذا كانت المشاكل بين الزوجين كثيرة ومعقدة.

⁷. Chebel. M. 1993, L'imaginaire arabomusulman, Paris. PUF, p 323.

⁸. Genevois. H. La mère, FDP, Fort national II, p12.

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

الأهمية التي تعطى للأطفال تدفع في كثير من الأحيان بكل واحد من الزوجين أن يبغض من حقه " يسمح من حقه على خاطر لولاد ". ولعل أكثر الذين يعانون في علاقاتهم الزوجية يعطون الأطفال كسبب أولي ورئيسي لعدم الطلاق.

والرجوع إلى التصور الشعبي أو الحديث العام الذي كثيرا ما نسمعه أو حتى نردده يجلي لنا فكرة العلاقة بين تواجد الأطفال وديمومة الزواج، فغالبا ما نسمع المثل الموجه للرجال والقائل : " لا تضرب زوجتك حتى تربط يديها " ورباط الأيدي هنا يعني الأطفال. أما بالنسبة للمرأة فعادة ما تسمع قبل الزواج أو في أيامها الأولى -لحفاظ على زوجها- نصائح مثل " اربطيه بالأولاد ". هذا لأنه كلما زاد عدد أطفالها كلما عجز الزوج اقتصاديا، أي أن امكانياته المادية تقل وبالتالي لا يستطيع التفكير في الزواج ثانية. ومنه نستطيع أن نستنتج مكانة وقيمة الطفل بالنسبة للزوجين.

هذه القيمة قد تكون أكبر بالنسبة للنساء لأنهن في نظر المجتمع أول من يتحمل مسؤولية الإنجاب أو المشاكل التي يمكن أن تتعلق به. آسيا جبار⁹ في إحدى رواياتها تصف بصورة رائعة القلق الذي ينتاب النساء اللاتي يبدين كأنهن في صراع مع الزمن " يسرعن بإنجاب الطفل تلو الآخر لإسكات وخنق الخوف الذي بداخلهن " الخوف من أن يحكم عليهن بقبول الضرة أو الطلاق. وبه فالأطفال بالنسبة للمرأة دعم أساسي للحفاظ على زوجها، لاستقرارها في بيت الزوجية ولمكانتها في العائلة الجديدة التي اختارتها، ناهيك عن السلطة التي يمكن أن تكتسبها خاصة بكبرهم.

بمثل هذه المعطيات كيف يمكن للعروس ألا تعيش حالة من القلق وعدم الاستقرار قبل أن تنجب الطفل الأول، أو على الأقل أن يثبت حملها لكي تتحرر من فكرة العقم الذي تعيشه كبلاء وفاجعة تزيد الأسرة والمجتمع من حدته. المرأة العاقر تعتبر في نظر الكل امرأة ناقصة، ويصل نقصها هذا حدا تعتبر فيه أنها تبعد البركة عن المنزل في بعض المناطق الريفية. حتى بين النساء ينظر لها على أنها معاقة اجتماعيا، وكأنها المسؤولة الوحيدة عن عقمها. فالأنظار تبقى موجهة صوبها ما لم تحمل، والسؤال عما

⁹ Djebbar, A. 1967, Les Alouettes Naïves, Paris, Julliard.

كهر الدكتورة راحية بن علي

إذا كانت حبلى مباح للكل، ومع هذا السؤال تزيد الضغوط ويكبر الخوف من أن تكون عاقرا، وبالتالي يزيد القلق الذي بدوره يتحول مع الأشهر التي تبقى فيها دون حمل إلى وسواس. ولا تنقص هذه الوسواس إلا بظهور علامات الحمل. لذا نادرا ما تستخدم النساء موانع الحمل في أول الزواج. سيلفي قارنرو¹⁰ Garnero. S في دراسة قامت بها على عينة من النساء العاصميات تتكلم عن هذه الرغبة غير العادية في الأمومة وتصفها بالقول : " هذه الولادات المتعاقبة الواحدة تلو الأخرى تأتي وكأنها تسكت قلق الأرحام الفارغة ".

والواقع يبين أن أكبر نكبة قد تصيب المرأة في المجتمع الجزائري –والعربي عامة- هي عدم القدرة على الإنجاب أولا، ثم عدم إنجاب الذكور ثانيا. عبد الوهاب بوهديبة¹¹ يذكر أن قلق الأرحام الفارغة، الذعر من سقوط الجنين (les fausses couches)، وسواس إنجاب البنات فقط وسوء الحظ الذي قد يؤدي إلى موت الأطفال صغارا تبقى الأمور الأربعة التي تفجع المرأة العربية. وجدير بالذكر هنا أن العقم من أهم الأسباب التي تسمح بتعدد الزوجات في قانون الأسرة.

بالنسبة للرجل يأخذ العقم نفس الأبعاد الدرامية، إذ يعد الرجل أيضا في نظر المجتمع معاقا اجتماعيا لكن بأضرار أخف من تلك التي تعانيها المرأة. معظم النساء يعشن عقم أزواجهن كقدر ومكتوب يجب عليهن تقبله، وقليلات هن اللواتي يطلبن الطلاق لهذا السبب. وإذا كان الرجل (أو الذكر) مفخرة والديه وأسرته كلها فإن أكثر الأشياء التي يمكن أن تهدد رجولته هو أن يكون من دون نسل أو ذرية تحمل اسمه. إنجاب الأطفال في المجتمع الجزائري مرادف آخر لمصطلح الرجولة. وأن يعيش الرجل في مجتمع بطريقي دون إثبات رجولته مساس وإهانة له. رجل من غير أطفال محكوم عليه أن يعيش ذليلا، أفلا يستخدم عادة لفظ " مسكين " حين يتحدث عنه (مسكين ما

¹⁰. Garnero. S. 1983. Essai d'approche des relations précoces mères-enfant de la naissance à dix-huit mois en milieu culturel algérois. Paris Val de Marne. Mémoire de spécialisation en psychiatrie. p 83.

¹¹. Bouhdiba. A. 1979. La sexualité en Islam. Paris. PUF. p 264.

محددات تصور الطفل في المجتمع الجزائري

جابش أولاد). ولعل مثل هذا الوضع القاسي هو الذي يفسر ذهاب النساء أولا للعلاج في حالة عدم الإنجاب (عند الطبيب أو الطالب أو غيرهما) وتأخر الرجال أو حتى رفضهم المطلق، إذ لا يوجد في المجتمع البطريقي أصعب من أن نشكك في رجولة الرجل. عموما، حتى وإن اقتنع الزوجان بفكرة عدم الإنجاب لعقم أحدهما أو تأخيرها لأمر يعنيهما فإن الضغوطات الأسرية والاجتماعية التي يكونان عرضة لها، من أول أشهر الزواج، كثيرا ما تؤثر على هذه القناعة. لا يوجد في المجتمع الجزائري إمكانيات كثيرة للخيار بالنسبة لهذا الموضوع ورغم المقاومة فإن خيار الزوجين عادة ما يسقط أمام الضغط الاجتماعي. فكرة عدم الرغبة في الأطفال في حد ذاتها غير مقبولة بتاتا، ومسؤولية ديمومة العائلة الكبيرة والحفاظ عليها تقع على كاهل كل فرد في المجتمع.

خاتمة

مما سبق نخلص للقول أنه وسط هذا التصميم النسقي المكون من الدين، المجتمع والأسرة يشكل الطفل حجر الزاوية الذي يضمن التواتر والاستمرارية. الطفل في المجتمع الجزائري ليس ملكا لنفسه، ولا ينظر له أبدا كشخصية مستقلة، لكنه على الأقل ملك لأبويه، للعائلة والمجتمع ككل. هذا لأنه يلم شمل الأسرة، يمدد تواجدتها في الزمن، يعطي مكانة اجتماعية لوالديه، يضمن الخلف ويذكر بأجداده، يزيد من استقرار الأم، ويثبت رجولة الزوج... الخ.

الطفل في المجتمع الجزائري يعني الديمومة، فالولد يضمن تواتر الأسرة، يقوم برعاية والديه في الكبر، يحمل لقب العائلة، يحفظ الميراث ويؤمن السلالة أما البنت فتعطي بزواجها أطفالا آخرين تؤمن بهم ما سبق ذكره. لهذه الأسباب ترفض فكرة عدم الإنجاب وينبذ العقم في مجتمع يعتبر التوالد

(la reproduction) واجبا فرديا واجتماعيا يجب على الكل القيام به. كما نخلص أيضا إلى أن الثنائية *والدين/ أطفال* تعمل في إطار ديكوتيكي يقوم على العطاء المشترك اللازم لحياة الطرفين. فإذا كان قدر الأطفال، أينما كانوا، مرتبط بالوالدين فإن قدر

هؤلاء (أي الوالدين) في الجزائر¹² مربوط ارتباطا وثيقا، بل مشروط بتواجد الأطفال في حياتهم.

¹². وفي مناطق وثقافات أخرى أيضا.

- Bendahman. H, 1982, Fonction paternelle au Maghreb et transplantation, Université de Strasbourg I, Thèse en psychologie, Strasbourg.
- Bouhdiba. A, 1979, La sexualité en Islam, Paris PUF.
- Camilleri. C, 1996, Regard sur l'enfant dans diverses cultures : réflexion d'ensemble, in Des sociétés des enfants, Sous dir Herbaut. C. Wallet. J. W, Paris, L'Harmattan.
- Chebel. M, 1993, L'imaginaire arabomusulman, Paris, PUF.
- Code de la famille Algérienne, (1990), Office des publications universitaires, Alger.
- Derguini. M, 1996, Regards sur l'handicape dans la société algérienne, in Des sociétés des enfants, Paris, L'Harmattan.
- Djebar. A, 1967, Les Alouettes Naïves, Paris, Julliard.
- Fakkar . Y, 1983, Mettre au monde ou le djihad des femmes, in Femmes de méditerranée, Peuples méditerrané, N°22-23.
- Genevois. H, La mère, FDP, Fort national II.
- Garnero. S, 1983, Essai d'approche des relations précoces mères-enfant de la naissance à dix- huit mois en milieu culturel algérois, Paris Val de Marne, Mémoire de spécialisation en psychiatrie, Paris.
- Lacoste Duardin. C, 1993, Des mères contre les femmes : maternité et patriarcat au Maghreb, Paris, L'harmattan